اسماعيل باشا

ثم أقبل على حكم مصر المغفور له اسماعيل باشا فنهض بالبلاد نهضة كاملة اشتملت على الجيش والتعليم والصناعة والتجارة والزراعة والصحة العامة فارتقت أحوال البلاد فى جميع النواحى . أليس اسماعيل الذى أنشأ المئات من دور العلم والمشافى ومد خطوط السكك الحديدية والطرق وشق الترع وأقام القناطر والسدود وأصلح الموانىء والمنائر ـ ألم يكن اسماعيل العظيم الذى بعث رجال العلم والريادة لكشف منابع النيل ومجاهل القارة الأفريقية وأسس دولة أفريقية كبرى

وجّه اسماعيل عنايته إلى جيش البلاد فرفع مستواه العلمى وزاد عدده وسلحه بمختلف الأسلحة الحديثة وأنشأ له المدارس الكبيرة وأقام له المصانع وأوفد البعوث من رجاله للمعاهد الأوربية ـ وكون له هيئة من ضباط (أركان الحرب) تضارع هيئة أى دولة كبرى

عنى اسماعيل باشا بتعليم الجيش . ضباطاً وجنوداً . ففى عهده أعيد تنظيم المعاهد العسكرية لكبار الضباط ولصغارهم ولضباط الصف والجنود . وهكذا نراه يشيد عظمة مصر على دعائم العلم والتربية والقوة

وفى أيامه استنجدت الدولة العثمانية به فى اخماد ثورة العسير واليمن (١٨٦٣ ـ ١٨٦٦ م) وفى حرب الجبل الأسود (١٨٦٢) ـ وفى حرب كريت (١٧٦١ ـ ١٨٦٧) وفى هذه الحرب أثبت الجندى المصرى أنه محارب من الطراز الأول وأنه حقا حفيد هؤلاء المقاتلين الأشداء بناة الامبراطوريات

وفى طليعة حملات الجيش المصرى ـ فتح دارفور والتوسع فى السودان الشرقى ـ فأخضعت زيلع وهرر ومصوع . كما أتم الخديو اسماعيل توسيع أملاكه السودانية من الجنوب . وأعلن رسميا بأن البلاد التى حول (غندوكرو) أصبحت فى حوزة مصر . وسمى المدينة المذكورة (الاسماعيلية) وعين الكولونيل (جوردون) حاكما لمديرية خط الاستواء (١٨٧٤) وعمل على مد نفوذ مصر

حوالى بحيرة فكتوريا نيزا ثم أرسل حملة الى بلاد الصومال الجنوبية لادخال المناطق الواقعة على نهر جوبا فى قبضة مصر

ولقد نجحت السياسة المصرية التى رسمها اسماعيل العظيم لتوسيع رقعة دولته نحو الجنوب الى أقاليم خط الاستواء

ومن حروب مصر – حرب الحبشة (١٨٧٥ – ١٨٧٦) ثم اشتراكها فى حرب الصرب (١٨٧٦) وفى الحرب الروسية التركية (١٨٧٧)

ولقد كان عهد اسماعيل من أعظم العهود العسكرية التى عرفها الجيش المصرى . وتاريخ الجيش الاسماعيلى من أنصع صفحات الجيش

الجيش الظافر

رأينا محمد على يضع الحجر الأساسى فى وحدة وادى النيل بعد أيام الفراعنة فقد كان من نتائج فتح السودان فى عهده توحيد القطر الجنوبى بعد أن كان إمارات وقبائل غير متماسكة وعقب هذا الفتح المظفر أيضا اكتشاف منابع النيل وانتشار العلم وامتداد العمران بل وازدهار الحضارة هناك

ولما تولى اسماعيل حكم مصر تابع سياسة جده فى وادى النيل الجنوبى. فقضى على النخاسة واكتشفت مجاهل الصحارى السودانية وفتحت البحيرات الاستوائية للملاحة واخضعت البلاد الواقعة جنوبى « غندوكرو » . ورفع عليها العلم المصرى يوم ٢٦ مايو عام ١٨٧١ وسميت « الاسماعيلية » ثم ضمت مديرية خط الاستواء ونصب عليها حاكما من قبل مصر . وضمت أوغندة أيضا وعقدت مع ملكها معاهدة صداقة . وكان اسماعيل يحدد لقائد الحملة المصرية الأهداف التى ينبغى تحقيقها فكتب اليه يقول « لاتواصل الزحف الى الأمام بل استعمر البلاد وعلم السكان واجعل القبائل موالية لك »

وفى أيام اسماعيل استقرت السيادة المصرية على جميع شاطىء البحر الأحمر الغربى إلى ميناء بربرة (فى الصومال البريطانى اليوم)

وبعد أن حصل على تنازل تركيا لمصر عن ميناءى سواكن ومصوع (فى أريتريا

اليوم) بمقتضى فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ . عين اللواء « ممتاز باشا » واليا على جميع ساحل افريقيا من السويس إلى رأس جردفوى (الصومال الايطالى) ـ فرفع العلم المصرى على (بلهار) فى ١٦ يناير عام ١٨٨١ ثم حصل على تنازل تركيا عن زيلع لمصر فى يونيو عام ١٨٧٥ . وقد اعترفت انجلترا بحق مصر فى هذه المناطق . فعقدت معاهدة فى ٧ سبتمبر ١٨٧٧ وقعها قنصل انجلترا العام فى مصر عن الجانب الانجليزى ومحمد شريف باشا عن الجانب المصرى ـ وتقرر فيها أن جميع ساحل افريقيا الشرقى لغاية رأس جردفوى تملكه مصر (١)

وقد أجمع المؤرخون على أن ضم زيلع وبلهار وبربرة وساحل افريقية الشرقى حتى رأس جردفوى إلى الدولة المصرية قد أثمر نتائج رائعة لم يحققها أى احتلال أوربى آخر فى أفريقيا .

وقد حرص رجال القسم الجغرافى من ضباط هيئة أركان حرب الجيش المصرى على تسجيل هذه الممتلكات المصرية فى خريطة عرضت فى المعرض الجغرافى الدولى الذى عقد فى البندقية عام ١٨٨١ .

ولكن السياسة العدائية الموجهة ضد مصر فى أخريات القرن التاسع عشر كانت لاتريد لها هذا التفوق الإفريقي فانتهزت فرص الحوادث عقب عام ١٨٨٢ وبدأت تنفذ سياسة البتر وأبعدت بالتدريج السيادة المصرية عن الأقاليم الاستوائية وشرقى افريقيا ومعظم أنحاء السودان

* * *

وقد نهض اسماعيل بالتعليم . فانشئت مدارس الحقوق ودار العلوم والمدارس الثانوية ومعاهد البنات . وكان التعليم فى معظم المدارس مجانيا . وبلغت ميزانيته فى عهده حوالى ٧٥٠٠٠ جنيه . وفى أيامه انشئت مئات من منشآت الرى والزراعة والصناعة . ومدت خطوط السكك الحديدية والتلغراف . ونظم البريد ـ و تقدمت

---

(١) فيليب جلاد ـ قاموس الادارة والقضاء ـ جزء ٢ صفحة ٤٩٠

الشئون الصحية وازدهرت المدن بالمبانى الحديثة . وظهرت الحركة الوطنية ـ ودعمت الحياة النيابية ـ وتطورت الحياة الاجتماعية

ولولا تدخل الدول الاوربيـــة فى شئون مصر لما تسرب نفوذها الى أعمال الحـكومة . ولما انتهى الحال الى حوادث عام ١٨٨٢ . ولما تصدع بناء الاستقلال المالى والسياسى الذى وضع دعامته محمد على العظيم

الظفر المصرى فى السودان

وما كادت الحركة العرابية تغلب على أمرها حتى اشتعلت مراجل الثورة فى السودان بزعامة المهدى ونجح كل النجاح وأقام امبراطوريته السودانيـــة ـ ثم لعبت السياسة دورها ـ فسحبت القوات المصرية من شطر وادى النيل الجنوبى بالرغم من معارضة الوزير الوطنى محمد شريف باشا الذى قدم استقالته

ومنذ تم هذا الانسحاب بدأت سلسلة متواصلة الحلقات من المعارك فى انحاء السودان كان النصر فيها متبادلا بين المصريين والسودانيين الى أن قرر نهائيا استعادة السودان عام ١٨٩٦ وسنذكر أهم معارك الجيش الظافر فى تلك الحملة .

الاستيلاء على عـكاشة	فى	٢٠ مارس	١٨٩٦
معركة فيركه	فى	٧ يونيو	١٨٩٦
« الحفير	فى	١٩ سبتمبر	١٨٩٦
« أبو حمد	فى	٦ سبتمبر	١٨٩٧
« دنقله	فى	٣٠ سبتمبر	١٨٩٧
« العطبرة	فى	٧ ابريل	١٨٩٨
« أم درمان	فى	٢ سبتمبر	١٨٩٨
« القضارف	فى	٢٨ سبتمبر	١٨٩٨
« جديد (أم دبريكات)	فى	٢٤ نوفمبر	١٨٩٩

هذه أهم معـارك حملة اعادة فتح السودان . فعاد الأمن إلى تلك البلاد الجميلة

ومع ذلك فقد جنحت بعض القبائل الى الثورة بدوافع شتى فكانت تخمدها وحدات الجيش المصرية والسودانية ومن تلك المعارك :

معارك النيل الأزرق بما فيها كملا وسنار والجزيرة

داوريات بحر الغزال ـ معارك جيروك ـ معركة نيام نيام ـ حملة تلودى ـ معركة الكتفية ـ معركة علياب بمنجلا ـ معركة أجاكير ـ معركة الطير الأخضر ـ معركة مندل والصبهاى الخ . .

فما الذى يمكن أن يقال بعد ذلك عن كفاءة الجندى المصرى وبطولته فى ميادين القتال ؟ فلم يكن فتح السودان حملة قصيرة العمر ـ بل كان سلسلة من المعارك الدموية ضد مقاتلين من الأبطال ـ معارك دارت فى بقاع شتى من السودان ـ فى الصحراء وفى الجبال وفى السهول وفى الغابات وعلى ضفاف النيل ـ ولولا الجندى المصرى وطبيعته لما كتب التاريخ فى صفحاته التى نقرأها اليوم ـ فهو جندى قوى العضل باسل صبور على المكاره يتحمل أشد المتاعب ـ وليس هذا بعجيب لأنه نشأ فى أمة من المكافحين الأشداء . .

الحرب العالمية الأولى

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى امتحنت من جديد روح الجيش المصرى فاشتركت المدفعية المصرية مع القوات البريطانية فى رد هجوم الأعداء من قنال السويس . واستشهد بعض أفرادها دفاعا عن وطنهم ـ وعاونت بعض وحدات الجيش المشاة (الكتيبة الثانية المشاة) رد غارات الأتراك فى أنحاء سيناء الجنوبية فى العمليات الحربية التى نشبت فى عام ١٩١٥

وأنقذت حاميتها المصرية مدينة الطور

وفى الصحراء الغربية اشترك جنود الأشغال العسكرية فى الأعمال الفنية الخاصة بالمياه والاستحكامات وقصدت وحدات أخرى من هذا السلاح إلى ميدان الدردنيل

واشتركت الكتيبة السادسة فى حملة استقلال الحجاز (سبتمبر عام ١٩١٦) مع وحدات من المدفعية المصرية ـ فأدى الجنود واجبهم ببسالة تحدثت عنها التقارير الرسمية التى كتبت عن الحملة بالتقدير والثناء ـ وقام الجيش بأعمال تكللت بالنجاح فى عمليات دارفور التى انتهت بهزيمة السلطان على دينار